*ملامح النقد في العصر العباسي*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ *محمد سعد حسن*

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*mohamad.saad@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في ملامح النقد في العصر العباسي**

**الكلمات المفتاحية : الملاحظات البلاغية ، الحياة العقلية ، اللغة والشعر**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن ملامح النقد في العصر العباسي**

1. **عنوان المقال**

**إذا ما انتقلنا إلى ملامح النقد في العصر العباسي، فإننا لا نكاد نصل إلى عصره الأول حتى نلحظ اتساع الملاحظات البلاغية، وقد كان لذلك أسباب مختلفة منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتين من المعلمين عنيت إحداهما باللغة والشعر، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة، وإحكام الأدلة، ودقة التعبير وروعته.**

**أما ما يعود إلى تطور النثر والشعر-وهذا هو ما يهمنا- فمرده إلى أن كثيرين من الفرس والموالي أتقنوا العربية، وحذقوها، واتخذوها لسانهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم، وبرعوا في ذلك براعة منقطعة النظير، قد أخذوا هم ومن يرجعون إلى أصول عربية خالصة يشعرون بجامعة العروبة العامة، ويتنفسون الحضارة العباسية، ويُصبغون بأصباغها الثقافية، وينهضون من خلال كل ذلك بالنثر والشعر جميعًا نهضةً واسعة.**

**ونحن بدورنا لو نظرنا في النثر بالذات؛ لرأيناه يتطور تطورًا رائعًا في العصر العباسي؛ إذ نشأ فيه النثر العلمي الخالص، واستوعب آثارًا أجنبية كثيرة نُقلت إليه منها الأدبي، ومنها السياسي، ومنها الفلسفي، ويكفي أن نذكر في هذا الصدد، ابن المقفع، المتوفى سنة 143 من الهجرة، فقد ترجم عن الفارسية كتبًا تاريخية مختلفة، وأخرى أدبية وسياسية، كما ترجم كليلة ودمنة، وأجزاء من منطق "أرسطو طاليس"، واتسعت الترجمة بعده، وأُسست لها دار الحكمة، وأكبَّ المترجمون من السريان وغيرهم، ينقلون التراث اليوناني، والفارسي، والهندي.**

**وكان ذلك تحولًا كبيرًا في الفكر العربي؛ إذ اصطبغ بثقافات أجنبية كثيرة، وأخذت أوعية لغته تحمل كل التراث الحضاري القديم، واتسعت جنباتها سعة شديدة، وهي سعة أتيح لها منذ أول الأمر كاتب فذٌّ، خبر أساليب اللغة ومرن عليها، ونقصد به ابن المقفع، وهو بدون ريب يُعد في طليعة من ثبتوا الأسلوب العباسي الجديد الذي سُمي باسم الأسلوب المُولَّد، وهو أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقة في اختيار الألفاظ، ووضعها في أمكنتها الصحيحة، وبث المعاني المستحدثة فيها دون عوجٍ أو تعقيد.**

**قد ذكر الرواة أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها، فقال فيما نقله عنه الجاحظ في: (البيان والتبيين)، في الجزء الأول: "البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل"، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى.**

**والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، هكذا يقول ابن المقفع، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر، البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، فقيل له: فإن ملَّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف، قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام؛ فلا تهتم بما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: "رضا الناس شيء لا ينال".**

**وابن المقفع في أول تفسيره للبلاغة، يعمد إلى القسمة العقلية، فيجعلها أقسامًا في الصوت، والاستماع، والإشارة، والكلام، ثم يقسم الكلام، ، أو قل يضع مكانه أنواعه، وهي الاحتجاج، أو المناظرة، والجدل، والجواب في الحديث، والشعر، والكلام المسجوع، والخطب، والرسائل، ويطلب في جميع ذلك الإيجاز، ولعله يقصد إلى التدقيق وشدة التركيز، اللذين يحدثان في الكلام حدةً وضربًا من اللذع؛ بحيث يصيب المتكلم هدفه مباشرة، وقد رجع يطلب في خطب المحافل، والصلح، الإطناب، ولكن بحيث لا يمل الخطيب السامعين، وبحيث يقصد إلى غايته قصدًا دون إعادة لمعانيه، ودون انحراف عن مراده، ولا يلبث ابن المقفع، أن يضع قاعدة مهمة لكل متكلم، إلى أن يكون في فاتحة كلامه ما يشير إلى غرضه، وهو ما سماه فيما بعد أصحاب البديع باسم: حسن الاستهلال، ويضيف إلى ذلك فكرة ثانية تتصل بأبيات الشعر؛ إذ يقول: "إن خيرها ما دل صدره على قافيته"، وما سماه فيما بعد ابن المعتز، باسم: رد الأعجاز على ما تقدمه، ثم سمَّاه أصحاب البديع: رد الأعجاز على الصدور.**

**ويلاحظ ابن المقفع أخيرًا، كما لاحظ أولًا أن لكلٍّ من الإيجاز والإطناب مقامه، ولكل مقامٍ سياسته، فما يصلح فيه الإيجاز لا يصلح فيه الإطناب، كذلك لا يصلح الإطناب في موضع الإيجاز، فلكلٍّ منهما مكانه ومقامه، ويشير إلى حقوق الكلام، ولعله يريد فصاحته وجريانه على قوانين البيان العربي، وهو يسلك في كُتاب الدواوين، وهم يعدّون أهم من عُني من الكاتبين بصياغة النثر العربي حينئذٍ؛ إذ كانوا يُختارون من الفصحاء البلغاء، وقد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة؛ لأنهم كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب، وكانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبونه من رسائل، فإذا وقفوا منهم على ناشئٍ تنمُّ كتابته على تفنن في القول؛ شجَّعوه، وربما قدموه إلى الخليفة، أو إلى بعض الوزراء، فلمع اسمه وتألق نجمه.**

**وجعفر، إنما هو مثل من أمثلة هؤلاء الكتاب الذين برعوا في فنون التعبير، والذين طالما أداروا بينهم آراءهم في البيان والبلاغ، وإذا تركنا كتاب هذا العصر إلى شعرائه، وجدناهم يتطورون أيضًا بشعرهم تطورًا بعيدًا بتأثير حياتهم الحضارية، والعقلية، وبون بعيد بين شعر جرير -شاعر العصر الأموي- وشعر بشار، شاعر العصر العباسي الأول، فالشعر عند جرير، يحتفظ بموضوعاته وتقاليده الجاهلية، وحقًّا هو يتطور في بعض معانيه وبعض جوانبه، ولكن في حدود الإطار القديم.**

**أما عند بشار، فإنه ينزع منزعين مختلفين، منزعًا يحتفظ فيه بشار بالتقاليد الموروثة، مع شيء من التطور بتأثير ما حدث من رقي العقل العربي لكثرة ما تزود به من المعارف الأجنبية، وأيضًا بتأثير ما داخل الحس العربي من تحضر ومن رقة الشعور ورهافته، وهو منزع كان يضطر إليه اضطرارًا حين يُعني بمديح الخلفاء، والوزراء والقواد والأمراء؛ إذ كان هو الذي يرضيهم فيضفون عليه نوالهم وعطاءاتهم، وكان يقابل هذا المنزع عنده منزع ثاني لم يكن يعنى فيه بالمدح، إنما كان يعنى فيه بتصوير حياته الشخصية وأهوائه وميوله، ولهوه، وطربه، وخمره، وحبه، وتبعه شعراء العباسيون، ينزعون في شعرهم نفس المنزعين، مضيفين إلى أنغام المنزع الثاني أنغامًا كثيرة، وهي أنغام أهملوا فيها، أو على الأقل في جمهورها ما عُرف به العرب من العفة، والوقار، والارتفاع عن الدَّنيَّات؛ إذ أطلقوا لأنفسهم العنان في اللهو والمجون، وفي تصوير عواطفهم، وأهوائهم دون أيِّ احتشام.**

**وهذا الالتقاء بين الجديد والقديم، وما كان من استغلال الجديد للقديم، هذا الاستغلال الحي الخصب، دفع إلى نشاط الملاحظات البلاغية نشاطًا واسعًا، فإن الشعراء وازنوا كثيرًا بين معانيهم ومعاني القدماء، وحاولوا أن يثبتوا تفوقهم عليهم، أو على الأقل يجارونهم في بعض بدائعهم، ولا يتخلفون عنهم، ومن خير ما يصور ذلك، قول بشار: "ما زلت أروي في بيت امرئ القيس:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا** | **\*** | **لدى وكرها العناب والحشف البالي** |

**العنَّاب: نوع من الشراب، والحشف البالي: هو التمر اليابس الرديء، إذ شبه شيئين بشيئين حتى صنعت؛ هكذا يقول بشار:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **كأن المثار النقع فوق رءوسنا** | **\*** | **وأسيافنا ليل تهاوى كواكب** |

**وهو إنما يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين، إذ التشبيهان مختلفان، ولعل في ذلك ما يفيد إلى أن الشاعر العباسي كان يحاول محاكاة الشاعر القديم في وسائله البلاغية، من تشبيه وغير تشبيه؛ مستعينًا بفكره الدقيق، ولطف مسالكه إلى المعاني والأخيلة، وبحسه الحضري الرقيق، ومشاعره المرهفة.**

**ومما كانوا ينكرونه إنكارًا شديدًا، التبدي في القول، وحشد الألفاظ الغريبة، وكان ابن مناذر ممن يسرفون على أنفسهم في ذلك، فقال له أبو العتاهية: "شعرك مهجن لا يلحق بالفحول وأنت خارج عن طبقة المحدثين، فإن كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة، فما لحقتهما، ولا أنت في طريقهما، وإن كنت تذهب مذهب المحدثين فما صنعت شيئًا، أخبرني عن قولك:**

|  |
| --- |
| **ومن عاداك لاقى المرمريس** |

**أخبرني عن المرمريس ما هو؟ قال: فخجل ابن مناذر، وما راجعه حرفًا، ذكر هذه الواقعة، صاحب (الأغاني)، في الجزء الرابع، وكان أبو العتاهية، قد اختار نسيج شعره، وخاصة زهدياته، أسلوبًا لينًا، بناه على السهولة، واللفظ الخفيف المألوف، الذي تأنس له العامة، وكان ذلك يعد انحرافًا عن الأسلوب الجزل الفخم، الذي تشيع فيه الرصانة، والذي كان يجري فيه الشعر الرسمي شعر المديح، فانبرى مسلم بن الوليد، يقول له: والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **الحمد والنعمة لك** | **\*** | **والملك لا شريك لك** |
| **لبيك إن الملك لك** | **\*** | **.... .... .... .... .... ....** |

**لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت، ولكني أقول:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **موفٍ على مهجٍ في يوم ذي رهجٍ** | **\*** | **كأنه أجل يسعى إلى أملي** |

**والمسألة في واقعها كانت تدور حول مذهبين: مذهب كان يرى أصحابه -أمثال أبي العتاهية- أن يقترب الشعر بلغة الشعب اليومية، حتى يمس جميع القلوب، وكان أبو العتاهية، يصر على ذلك إصرارًا شديدًا حتى لا يقول: "الصواب لقائل الشعر، أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعري، ولا سيما الأشعار التي في الزهد، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب رواة الشعر، ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد، وأصحاب الحديث، والفقهاء، والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه، كذا ذكره صاحب (الأغاني) في الجزء الرابع صفحة 70.**

**وكان يقابل هذا المذهب، مذهب يعتد بقوة الوصف، وفخامته، وجزالته، وضخامته، وهو مذهب مسلم، بل هو مذهب جمهور الشعراء في مدائحهم الرسمية، منذ بشار ومعاصريه، وقد مضوا ينمون ما وجدوه عند القدماء من تشبيهات، واستعارات، وجناسات، ومقابلات، حتى إذا ظهر مسلم، جعل هذه المُحَسنات جزءً لا يتجزأ من جوهر شعره، وأطلق عليها لأول مرة، اسم البديع، وخلفه أبو تمام، فأوفى بهذا البديع على الغاية المرتقبة من الإكثار والتفنن، بل من الإفراط والإسراف البعيد.**

**وعلى هذا النحو، كان الشعراء والكتاب يُكثرون من ملاحظاتهم البلاغية، محاولين بكل ما وسعهم أن يذللوا المادة الأدبية القديمة؛ لتحمل عصرهم، ونفوسهم، وأحاسيسهم، وعقولهم، وأخيلتهم، واستطاعوا أن يستوعبوا خصائص الأدب القديم، وأن ينموها؛ ليبلغوا كل ما كان يرومونه من روعة الشعر والنثر، على أن من يرجع إلى (كتاب سيبويه)، الذي يقال: أنه جلب مادته من إملاءات الخليل، يجده يعرض لبعض الخصائص الأسلوبية، التي عُني بها فيما بعد علم المعاني من مثل التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير والحذف، أيضًا إنه يعرض المعاني المختلفة لبعض الأدوات، ومن حين إلى حين نلتقي بإشارات إلى بعض مسائل بيانية، وتكثر هذه الإشارات عند الفرَّاء، المتوفى سنة 207 للهجرة، في كتابه: (معاني القرآن).**

**إذ عُني فيه بشرح آي الذكر الحكيم، شرحًا بسط فيه الكلام في التراكيب، وتأويل العبارات، وتحدث فيه عن التقديم في الألفاظ والتأخير، والإيجاز، والإطناب، والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام.**

**كما أشار إلى بعض الصور البيانية، من مثل التشبيه، والكناية، والاستعارة، وكان ممن عاصر الفرَّاء، أبو عبيدة معمر بن المثنى، المتوفى سنة 208للهجرة، والأصمعي المتوفى سنة 211، ولأولهما كتاب مشهور يُسمى: (مجاز القرآن)، وظاهر عنوانه، يوهم أنه صنفه في المجاز بالمعنى البلاغي الاصطلاحي، وحقيقة الأمر أن كلمة المجاز عنده، تعني: الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة، ولم يكن للأصمعي أن يترك كتابًا في صيغ التعبير القرآني والأدبي، مثل كتاب أبي عبيدة دون أن يشير إليه، غير أن من جاءوا بعده أشاروا إلى أنه ألَّف في التجنيس كتابًا، يقول ابن المعتز عنه: "التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي، كتاب: (الأجناس) عليه، ويظهر أنه أول من أفاض في الحديث عن المطابقة بمعناها الاصطلاحي، ربما كان أول من اقترح اسمها، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الأصمعي أول من اقترح الالتفات أيضًا؛ اسمه الاصطلاحي في البلاغة.**

**وتنبه الأصمعي أيضًا إلى اللون البديع المعروف باسم الإيغال، وإن لم يقترح له اسمًا، وهو كما عرفه القدامى: "أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تامًّا من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر في أن يكون شعرًا إليها، فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره في البيت، وعلى هذه الشاكلة كان المعلمون من اللغويين والنحاة، ينثرون في تضاعيف كلامهم وشروحهم للشعر، وآي القرآن الكريم، ملاحظات مختلفة على بلاغة الكلام، وصوره البيانية، والتعبيرية، وحيث يمكن أن يقال: إنهم أدوا حتى أوائل القرن الثالث الهجري في هذا الصدد خدمة قيمة بفضل نظراتهم الفاحصة الدقيقة.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**